في الذكرى الثالثة لرحيل الرجل النبيل

كامل شياع في ذاكرة وطن

تمر غداً الذكرى الثالثة لاستشهاد المفكر الشخصية الوطنية كامل شياع، الذي امتدت إليه الأيدي الغاشمة، المدججة بكواتم الموت في ظهيرة ٢٣-٨-٢٠٠٨، متوهمة أنها ستكتم صوتاً تنويرياً هادراً، متناسية أنّ ما تركه الشهيد من مقالات وبحوث فكرية وسياسية جريئة، سيبقى في ذاكرة اجيال تنشد بناء وطن معافى من لوثات الفاشية والظلامية.

والمدى الثقافي تكرّس اليو م صفحتها لاستذكار هذا الرمز والقامة الثقافية الشامخة.

المدى الثقافي

حدث في مثل هذا اليوم

فيصل عبد الله

في يوم سبتٍ ملعون، هو الثالث والعشرين منً شهر آب عام ٢٠٠٨، اغتيل المفكر والكاتب والشخصية الوطنية العراقية كامل شياع.

اليوم، وبعد ثلاثة أعوام على تلك الفاجعة الكبرى، نستعيد نحن الأحياء ذكرى غيابه/ حضوره بيننا. كان يمكن لذلك اليوم ان يمر، مثله مثل بقية أيامنا المجلجة بعاديتها، ونطوي صفحته بسلام. لكنه أبى! مانحاً إيانا تاريخاً محدداً لحدث صار معلوماً. ما هو معلوم منه انه بحدود الساعة الثانية بعد الظهر، او حولها، غُمر كامل شياع بوابل رصاص كواتم الغدر. أما المكان فهو ليس بالبعيد عن "الباب الوسطاني" لبغداد، وأمام الأعين الساهرة لنقطتي شرطة على طريق محمد القاسم السريع. ورغم ان الناس في أرض السواد يولدون ويموتون من دون ان يكون لحضورهم او غيابهم معنى، وعبر قناعة يرددها العامة برضى وطمأنينة مفادها المكتوب وحكم القدر.

إذاً، وعلى خلاف ذلك الاعتقاد القدري، صار لكامل شياع يوم معلوم لا شريك له فيه إلا سيل دمه. أما وقائعه فهي تستعصي على النسيان، أقله لنا نحن الأهل وطيف واسع من الأصدقاء. هل نغافل الأهل والأحبة ودولتنا العتيدة بإثباته؟ هل نوقد شمعة ذكرى علهمِ يتذكرون؟ مَن منا سيوقد شمعة لمَن؟ وخلف أي نعش سنسير غداً، أو بعده؟ كم من أم وزوجة وأخت وابنة ستلفع بالسواد؟ هل سنؤمن بالمكتوب ذلك الذي نقش حروفه بطلقات على جبين مسالم، اسمه كامل شياع؟ ومع دوران الأسئلة تدور آلة القتل المجاني. تدور في بلاد تسبح بحمامات دم وحماقة وحقد وكراهية. يبادلك الفاعل بتكشيرة صفراء يحسبها ابتسامة. ابتسامة من يجلسون على كراسي أمراء الغابات، ويذرفون دموع التماسيح، ويمشون خلف النعوش اليومية، وحاملي أختام الطهارة والعفة والتقوى، وجحافل المرائين من مستجدي النعمة.

ومهما يكن، بين أيدينا حضور كامل شياع المادي والمعنوي. بين أيدينا جودة الأداء ولياقة المفردة والحضور الطاغي. بين أيدينا كتابات لا تنبع من الإيهام والتنجيم والانتحال، بل من متعة التفكير العقلاني الحر. بين أيدينا سيرة عصامي انتقل من حياة آمنة، على خلاف ما يتمناه ملايين البشر في العيش على صدقة دول الكفر، الى موظف في وزارة وبيئة تعج بنزق تدخلات هواة السياسة. بين أيدينا ذكرى رجل شعاره الأمل والضوء وحب الحياة. بين أيدينا رفعة مقام تليق بسفير سلام فوق العادة. بين أيدينا كامل شياع بإرثه وذكراه الطيبة، مقابل قاتل هارب يلوذ بعاره، وعار دولة الإنكشارية. بين أيدينا مئات المقالات التي كتبت بحقه، وتلك المكتوبة على شكل إهداءات في الصفحات الأولى لمجاميع الشعر والرواية والدراسات الفنية والفلسفية والأدبية. بين أيدينا نخبة تنادت لإحياء ضفاف ذكراه في ذلك اليوم المعلن. بين أيدينا قضية كبيرة، ان أحسنا توظيفها، تعنى بقيمٍ الحياة المدنية ومشروع الحداثة. أيا يكن... كأنه لمٍ يرحل×.

لا بأس إذاً ان نستعيد وسامة ذلك الوجه الباسم أبداً. ان يدخل كامل شياع بوابة التاريخ الواسع برصاص الغدر ليكون صنواً لبرج الأسد. ان نحمل الجرح ونمضي في رحلة الحياة وتشعب دروبها. ان نتعالى على التفاصيل الصغيرة لصغار القوم. ان نستجمع قوانا لنرمم تلك المكتبة المرصوفة بمئات الكتب والمصادر المتعددة اللغات، لا من أجل العودة الى الماضي بل لاستشراف المستقبل والعيش فيه. ان نسقط خبر "كان" من قاموسنا طالما انه لم يغادرنا. أن نبحث عن المعنى وسط خراب أيامنا العميم "سأجرّب إذاً أن أبدّل المنفى بالوطن، أو أن أبدّل متاهة بأخرى. لا تهمّني كثيراً التسميات، لأن الأمر يتعلقٍ بالمعنىٍ. وهو ما يبدو لي واضحا وبسيطاً: أنا شخص عاش من موقعه قصة استمرت ٢٥ عاماً. وحين بلغت تلك القصة نهايتها، عليه أن يأتي بفعل يتناسب معها، عليه أن يبحث عن حياة أخرى. وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك، تتحول معايشته الطويلة، بما فيها من قسوة وحرمان وإصرار وأمل، ضرباً من العبث والتفاهة. تخيل ما سيحدث لفلاديمير واستراغون لو ظهر غودو؟ لا أقصد هنا أنّ ظهور غودو. المستحيل على المسرح. ممكن على أرض العراق «المحرر»! مكان غودو الوحيد خارج المكان، أي داخل النفس"××.

أن نقول "حدث في مثل هذا اليوم" بملء الفم. ان لا يمر ذلك التاريخ دون ان نستذكر فيه نشوة ذلك المهجوس بدفق الحياة. أن نستذكر تلك الكلمات الأثيرة على شاخص قبره "أي أوجاع سرية يورث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن". ان نقلب البيت العربي الشهير "يعز عليّ أراك طريح التراب تعد النجوم"، رأساً على عقب. لكأنك سكنت المستحيل.

×من نص رسالة قصيرة للفنان والشاعر فوزي الدليمي.

×× من نص كامل شياع المهم "عودة بلا أوهام".

غير قابل للاستنساخ

جمال العتابي

هل سنكسر الحصار المفروض على ضحايانا وشهدائنا، عبر كتابات أو شهادات متواضعة وخجولة.. أم إننا نظل نبحث عن تلك النواحي العميقة في دفاعنا عن أنفسنا عبر تذكر أولئك. هي حماية لذاكرتنا نحن أولا. وهي الدفاع عن مناطق الذاكرة بأبعادها.

النسيان الذي يزحف على ذاكرتنا يبدأ من فكرة أن يصبح خبر اقتناص كامل شياع بطلق ناري صامت جزءاً من السائد الإعلامي..وخبر سقوط آلاف الضحايا من أقصى نقطة في العراق إلى أدناه مجرد خبر يأتي بتسلسل النشرات المفصلة لأخبار العالم.. بآخر قائمة الأخبار أو بدونه في كثير الأحيان. أو أن ينشأ جيل آخر لا يعرف من هو كامل شياع.. يبدو أن تلك الأسئلة موجهة إلينا تماماً. هم تسفح دماؤهم هناك، ونحن ننساهم هنا..

في كل عام وذكرى الاغتيال تقترب .. ليس لدينا سوى الكلمات لنعيد كامل للحضور بيننا .. فجأة نتذكر في آب من كل عام ... ثم تمر الذكرى عابرة لنستريح ... لكننا لانتذكر والدة كامل شياع التي يكاد أن يتوقف قلبها بسبب وجع الفقدان بين لحظة وأخرى .. هذا الوجع أقعدها من ممارسة سلوى زيارةٍ وادي السلام، فها هي تغمض عينا وتفتح أخرى لكي تشم رائحة العائدينٍ من هناك.... علها تجد شيئاً منه معلقاً في ثياب لامست مرقده .. و أخوته، علي، رابح ، سعد ما زالوا مذهولين وغير مصدقين الواقعة... اختاروا الصمت احتجاجا .. وهناك بعيداً ،(ينوح) فيصل. مناشداً وضاغطا وملتمسا المنظمات والجهات الثقافية في الخارج أن تحتفى بكامل بما يليق بمقامه الكبير واستحقاقه الفكري والثقافي .. وعلى الرغم مما قدمته هذه الجهات من جهد طيب ومشكور في هذا المجال .. وهو أرقى بكثير مما انتظرناه طويلا من جهات ، هي الأولى في تبني مشروع كامل الثقافي ، لكننا نتطلع إلى إسهامات أنضج .. وأشمل ..

كامل شياع حالة واحدة لايصح ان نستنسخ الكثير عنه.. أرجو أن لا أغضب أحدا واستفزه إذا تشجعت وقلت : إن لكامل خصوصيته التي تنبع من شخصيته هو، من تجربته الحياتية. من ثرائه الفكري. وعمق تفكيره. وتنوع ثقافته واهتماماته. ومناهل معرفته التي لاحدود لها. لم يكن مستعداً للمساومة على خياراته تلك، أو التضحية لما نسميه القبول أو الشهرة.. انه مسكون بالبحث عن إجابات وجد السبيل لها في الاستشهاد منذ أن غادر العراق في سبعينات القرن الماضي. مامعنى الانسلاخ أو الابتعاد عن الوطن؟ أية قوة تلك التي أجبرت كامل على الخيار الصعب في الغربة؟ انه دائم التوجه في السؤال عن هذا الاقتلاع.. المكان الذي غادره والآخر الذي عاش فيه وأحبه، ليعود من جديد لحتفه في الوطن.

ليس لدي أدنى شك في أن عقل كامل الكبير يختزن ذلك الحوار بين (فاوست وماكَيتوفيلس) حول المعرفة. بوصفها شيئين، التكرار أو المضي عندما سأل فاوست زميله عن كيفية الوصول الى المعرفة ، أجابه الثاني بان له خيارين، إما أن يكون فلاحاً يعزف التربة ويكرر فعل الفلاحة (الحرث، البذار، الحصاد) مع المواسم، وبذلك ينغلق في أسر التكرار، أو أن يكون بحاثة يمضي في العالم ولا يتوقف عن الترحال.

كامل أخذ الفكرة وجعلها مساراً في حياته. رفض التكرارٍ وكان له الخيار الثاني موقفاً وسلوكا، وصاغ فلسفته ورؤاه على وفق البحث الدائم عن الحقيقة، وجوهر الإنسان. ربما عن أشياء مازلنا نجهلها. وغير قادرين على أن نفكر فيها.. ووظف موهبته وعقله وسلوكه من اجل أن ينال منها.. هذه هي المغامرة الحقيقية ليس لها قانون، لأنه ينفر من المحددات، ومن النظرية لأنها مقيدة، فهو خارج عن التأطير نحو ماوراء المعاصرة.. مسحور بالمعرفة، بمعرفة ماسيحدث بالاحتمال، بإمكانية خلق أشياء جديدة من كل كلمة في اللغة، والفلسفة، والثقافة، والفن، والتاريخ، والسياسة، والصداقات، هذه كلها أسرار خصوصيته. كامل، كما أسلفت ، مفجر الكلمات لخلق عالم جديد، ربما عالم متخيل.

لم يكن كامل تجريبيا.. ولا منفصلاً عن الواقع، ولانظريا. انه يمتلك قوة غريبة مخترقة لكل النصوص. مختصرا بعبارات بليغة وجمل ذكية وجميلة. وبأسلوب رشيق. كل المعاني والدلالات في القول والفعل، يسكنه هاجس الحداثة بشكل معلن، يأخذ بنوابض المتلقي بشكلٍ ساحر، وهو ان عني بالجمهور اولا ، لكن مطامحه تتعلق بمشروعه الفكري ثانياً، من حق المتلقي ان يتعلم. لكنه يتطلع الى جمهور آخر يضيء ويستضيء، ذلك الجمهور الخفي.. ربما سيظهر مستقبلاً. انه يقذف بنصه نحو اؤلئك، نحو المستقبل، مما يعطيه صفة المغامرة.

أي طراز من الرجال أنت يا أبا الياس؟..إلى أي كوكبة تنتمي . وإلى أي عصر انتميت؟ هل كان بمقدورك أن تنتظر عصرك القادم .. أم أنك لم تقو على العيش في زمن منخور بالكذب والزيف... إني أكاد لا أحتمل أولئك الذين يتعمدون أن يتناسوك .. كم من القبح والجهالة يحملون؟ وملعونة الدنيا (بلاياك) .. فيالهفي عليك.

من البرج العاجي

رائحةُ رمضان

■ فوزي كريم

إنسانٌ شرقيّ في العالم الغربي. يسعى إلى التطبع أولاً، والانتفاع ما استطاع ثانياً من فورة الحياة الغنية التي تحيط به. تتسع مكتبته فتغطي الجدران. جهازه الموسيقي لا يخذله، وعلى الشاشة يتتبع، حين ينتهي من الأخبار التي تعنيه، عروضَ الأوبرا، والأفلام، ودوراتِ الدرس في حقول المعرفة التي لا تُحدّ. ركن الرسم في مطبخه المضاء كامل الاستعداد للاستجابة، إذا ما رغب. كلُّ شيء يتحقق بيسر في حقل الانتفاع. ولكن ما من شيء يتحقق باليسر ذاته في حقل التطبّع. فهناك محطات بين حلقات نشاطه، تنتصب كاليتيم في العيد فجأة. تنتصب عاجزة عن تحقيق حضورها الحقيقي، فتسعى إلى أداء دور تمثيلي تطفو متعتُه على السطح، طفوَ الزيت في الماء. إنه يكتشف أن هذه المحطات، بالرغم من عجزها عن التحقّق، صلبةٌ كعصا لا تلين. إنها محطاتُ التوق إلى الشرقي فيه. إلى الاستراحة داخل ذاكرته. إلى رائحة العائلة التي تقبل عليه في هيئة عادات وأعياد. إلى ظلّ أشجار التوت في الظهيرة. فهو، بالرغم من عدم ميله للشاي، إلا انه يُعد الشاي كل صباح، وبأقصى ما يستدعيه "تخديرُ" الشاي البغدادي من أصول. والصباحات الشتائية بصورة خاصة. لأن برد الشتاء الرطب هنا يُحوجه إلى مزيد من تكثيف الحميمية المُفتقدة. الألفةُ العائليةُ الغائبة. رائحةُ الشاي ورائحة الخبز لا تكاد تفارق شعره. وهي رائحة مُستلة من الذاكرة، لا من الواقع. من رغبة التطبّع، لا من رغبة الانتفاع. حين يضع الشاي في "الاستكان" الزجاجي الصغير، يحاول أن يجعلَ عبثَ الملعقة داخله ذا رنين يسمعه الجيران. لأنه بذلك يحقق حضوراً لبيته القديم، ولمقهاه. لا لشخصه وحده. وإذا ما أعدَّ الغداءَ خاصة، فهو يحرص على وضع قطعة الخبز الدافئة، حتى لو لم يأكلها، إلى جانب صحنيْ الرز والمرق. تماماً كما كانت تفعل أمه، حين كانت تُعد الغداء لأبيه، أو له. هنا، وفي أحيان مدهشة، تفاجئه رائحة أمه أو أبيه، تصحبُ رائحة الرزّ إلى خياشيمه. فيشعر بالعزاء. ولأنه لم يبع وقتَه في وظيفة أو عمل منظم، وليس له بالتالي من عودة متعَبة يراها في وجوه الموظفين والعاملين، عند عودتهم معَ مطلع الليل إلى بيوتهم، ولأنه يتذكر هذه الصورة المألوفة في ذاكرته، يُمنّي النفس هو الآخر بعودة كهذه مُتخيَّلة. لأن مذاق العشاء دونها يبدو للسانه ولروحه ماسخاً. ولكن هيهات من تحقيق ذلك. حينها يكتفي بارتداء دشداشته، وقد طوى إحدى ساقيه (اليسرى عادة) تحت مؤخرته، وجلس مع استكان الشاي، يتأمل حديقة البيت.

حين يسمع برمضان يدخل لندن غير مُتنكّر، يسعى بمفرده للاحتفال به. وعلى طريقته الخاصة دون شك. يُمنّي النفسَ بدعوة تأتيه من عائلة مجاورة، عربية أو غير عربية، ليجلس شأن الصائمين، ويبدأ معهم بالتمرة واللبن. ثم بشوربة العدس، التي كانت أمه تحرص على تطريزها بالبصل المقلي حدَّ الاحتراق. ولكن هيهات من تحقق ذلك. ولو حاول مجاراةَ الصائمين بتجهيز التمرة واللبن، وشوربة العدس مع بصلها المقلي، فمعَ منْ سيُشرك قلبَه وعقله ولسانَه ومعدته؟ وإفطار رمضان شعيرة جماعية، لا قيمة لعزلة الفرد فيها. حينها يقرر مع صحبة طيبة الذهابَ إلى Edgware Road. هناك يتزاحم العرب، والمطاعم العربية، والمقاهي العربية. وهناك يحسُّ، كما تُحس البشرة الجافة بالنسيم العذب الرطب، أطرافَ وشاح رمضان المزخرف، الملوّن، تمس أطراف ثيابه حيث يذهب، فتبعث فيه أريحية. ولو أنه انفرد بجمهور العرب، ومطاعمهم، ومقاهيهم دون رمضان، لما انتابته هذه الأريحية. لأن وشاحَ رمضان بالغُ الرقة في تقديمهم إليك. ثم إنه يقدمهم إليكَ جماعةً لا أفراداً. فيحجب عنك، بذلك، كل درن السوقية، والغرائزية المبتذلة، والتبذير المُسفّ.

في الآخر ينتخب مطعماً عراقياً يتزاحم بالصائمين أزواجاً، زوجات وأطفالاً. ومع صحبته الطيبة ينتخب مقعدين، فتأتيه في الساعة الموعودة التمرةُ واللبن، ثم شوربةُ العدس بالرائحة المعهودة. يقول لصاحبته التي لم تسمعه بفعل الصخب: "هلْ شممت الرائحة؟" "أية رائحة؟" تسأل. "رائحة أمي!"

كائنات الطين*: كيف يرى الجنون نفسه

عماد حسن

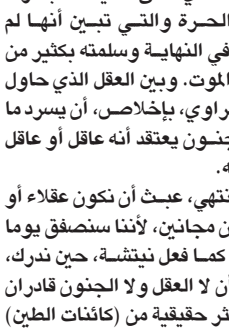

ألغى موت علي تراتبية الأسئلة. بعثر تقليديتها ليعيدها إليّ صامتة متقافزة، يصعب إحكامها.

كان زاء المنطقة الوسطى بين البيت والخارج. البيت الذي يحتله أخوته المجانين الأربعة والخارج الأكثر استعصاء على الفهم من الجنون نفسه.

شيء ما أفدح من الحزن عبر إلي من ارتباك زاء وحيرته المسكينة. أو ربما عبر إليَّ من الحدث نفسه، من موت علي. موت العقلاء يتوافق مع عقلانية الحياة والموت. موت المجنون يقود الى منطقة باردة،..فارغة.

من قصة كائنات الطين

يعي حسن ناصر، وربما زاء أيضاً، مقولة فوكو في الفصل المسمى(سفينة الحمقى): إن القضاء المبرم على الموت لم يعد شيئاً ذا بال، فقد كان يشكل كل شيء في السابق، فالحياة ذاتها لم تكن سوى تفاهات وكلام عبثي وصخب وصولجان مجانين. إن الرأس فارغة وستتحول الى جمجمة. إن الجنون هو الحضور المسبق للموت. وهذا الوعي لا يغير من كونهما نظرا إلى الجنون على أنه عَرَض يمكن تلافيه بذهاب أحدهما إلى الحرب وبجلوس الآخر لرواية هذا الذهاب العبثي.لم يتخلص زاء من جنونه، الذي هو أيضاً قدر من إله لا يقل جنوناً، بذهابه إلى حرب تتيح للجنون أن يتجلى بفصاحته المميتة. لم يتخلص من أوهامه بنفي حقيقة الجنون عن أوهام الآخرين الذين يرون في عدم الجنون الحالة الصحية للعالم. الراوي الذي، بدوره، أخذ على عاتقه مهمة إقناعنا بعودة زاء من جنونه الشاعري لم يزدنا إلا تبلبلاً بشكه الذي طال الكثير من قناعاتنا الراسخة. يقول عن زاء: يعرف كيف يستعمل السلاح ويعرف معنى العدو والمجد والوطن وكل أشباح العقل الأخرى.

وإذا ما استعرنا، على سبيل الافتراض، عقل زاء العائد من الجنون فكيف سنرى أنفسنا والجنون والعالم؟

غير بعيد عن هنا وفي غمرة أحداث مربكة تمتد إليها يد الجنون الواهيةحيث ملا علي عبداني يقرر وهو الرجل التقي، بأن يجمع عظام أبيه وجنونه الشخصي في صرة شاء الراوي أن يسميها (صرة عبداني) ويتوجه بها إلى النجف قاطعا (الحدود الملتهبة) في خضم الحرب العراقية الإيرانية. بعد أن قطع عهداً لأبيه بأن يدفن رفاته في وادي السلام. وحين يشعر ملا علي بتدهور صحته واقترابه الوشيك من الموت يقرر رحلته المجنونة تلك.

ليس من السهولة فك شاعرية الرموز تلك من أخرى غلفت،وربما بنية مبيتة، الجنون والموت الذي جاء على هذه الشاكلة. القصتان يخيم عليهما هاجس واحد في النهاية رغم اختلافهما الظاهر، هو كيف باستطاعتنا الحياة تحت أعباء عقل تستبعده الحياة دائماً؟ السؤال يبدو بسيطاً ومخيفاً. كالشعور الذي يخالجنا حين نقرأ تلك المقدمة التي تشبه إلى حد ما أحد بيانات الحرب التي تدور زمن القصة: بأمِّ عيني شاهدت ملا علي عبداني يبكي جالساً في ظل نخلة في مخفر التنومة بالبصرة عام ١٩٨٤. كانت الظهيرة تستعر والحرب على الجبهات تبتكر تجليات أرضية للجحيم، لكن دموع عبداني لم تكن على شيء من ذلك كله، بل على الصرة السوداء أمامه.

(أي مخرفين نقاتل) هذا ماجاء في التقرير الذي رفعه أحد عقلاء الحرب برتبة عقيد إلى قيادته العليا. وهو يفترض أن في اختلاف العبداني التائه وربما لاعقلانيته سبباً قاطعاً لتضمين عبارته تلك، فلم يراود العقل العسكري للعقيد بأن مايمارسه، واعداؤه، لم يكن يعني أي شيء.. للعبداني المأخوذ بحب وذكريات وعظام أبيه.

ولا مناص من العودة إلى فوكو في كتابه تاريخ الجنون لفهم عبارة العقيد التي كانت غير معنية ببلاغتها ولا بشعرية اللاعقل في تصرف عبداني. يكتب فوكو: إن المجنون لا يكشف عن نفسه من خلال كينونته، إلا أنه إذا كان ثابت الوجود، فلأنه مختلف.

والاختلاف جنون يدفع بمتأمله إلى إلغاء النتائج التي يتوصل إليها كل مرة. اختلاف عبداني يجد له ما يبرره في جنون زاء وبشكل أقل جنون علي، أقدم الأخوة في الجنون وأسبقهم إليه. إنهم وببساطة منذورون لرحلة شاقة قد تصل بهم إلى اللاشيء لكنها، على كل حال، حلمهم في الهروب من مصير يجمعهم بالفانين الآخرين. إن في اختلافهم الذي يشكل، دون علمهم ربما ، الوجه الآخر لعقلانيتنا المفرطة، عقلانيتنا التي يشهد عليها ذهابنا إلى الحرب كقطيع منّوم واختلافهم الذي يشهد عليه ذهابهم إلى الحرب للهروب إلى مصير لم نستطع نحن الإفلات منه.

إن ما يجعل الحياة مكتنرة على هذه الشاكلة هو الموت بالتأكيد، موتنا الذي يشبه ضرباً من الجنون أيضاً. في هذه المسيرة التي تسمى الحياة حيث يكون لنا قدر واحد في نهاية الأمر أن نذهب لحروب غيرنا لنموت فيها بعد أن شهدنا تلك الصيرورة المؤلمة، الصيرورة التي قال عنها سيوران: إنها احتضار بلا خاتمة.

كان علي أكبر الأخوة. أصابه، على حين غرة، مرض غريب لكنه بالتأكيد ليس أكثر غرابة من الرواية التي تقول، بأن علياً وفي من أحد الأيام الطويلة من حرب الشمال تعثر بجثة صاحبه فتدحرج عقله في واد عميق واختفى بعد ذلك الى الأبد، هكذا وبلا أسباب مفهومة أو نتائج مقنعة يجد علي نفسه (رهيناً لمحبسين) الجنون والبيت.

في واحدة من أجمل القصص التي كتبت في القرن العشرين، هي وبلا شك قصة "الخالد" لبروخيس. يقول ماركوس فلامينيوس روفوس الشاهد الوحيد والأخير على ذلك الهذيان الكوني المتواصل: ليسٍ هناك ماهو استثنائي بصدد كونك خالداً، فالكائنات كلها عدا البشر خالدة لأنها لا تعي ماهو الموت. إن الستارة التي اسدلها الراوي على حياة علي ليست هي، كما تتوهم عقولنا المنطقية،النهاية التي رافقت (إخفاء الجثة) كما لا يدور بخلد من غادر للتو ظلمة المسرح اللذيذة بأنه يواصل دوره في مسرح رئيسي يسمى مسرح المسارح، الذي هو الحياة أيضاً. علي الذي كتب بعشوائية مفرطة مسرحيته الخاصة والذي أدى دورها بالنيابة عنسويفت الذي يدعي بورخيس بأنه سُمع ذات ليلة (سويفت العجوز المجنون الضائع يردد، ولسنا نعرف إذا ما كان تسليماً منه أو برماً أو بطريقة من يريد إيواء نفسه في جوهره الشخصاني المتعالي: "أنا مَنْ أنا" .

كانت وجه نظر زاء إزاء جنونه هي التالي. إنه يستطيع وببساطة أن ينفذ من العالم الذي وجد به نفسه أخيرا، عالم الجنون الشاسع والمتحرر من إكراهات العقل، إلى عالم العقل المكبل إلى صخرة الجنون السرمدية. هناك وفي غمرة الحيرة والتردد يقرر زاء وعلى طريقة شوبنهاور التشائمية الذي يرى (الوعي الزائف جزءاً لا يتجزأ من وجودنا). يقرر بأن يكتب قصته، ستصبح بعد موته بسنوات طويلة قصة كائنات الطين على يد جار له يعشق السرد، عن علاقته الملتبسة بالجنون وبالعقل على حد سواء، وإذا ما صدقنا مقولة تيري إيغلتون، بادراكنا لانفسنا بوصفنا مؤلفي حياتنا الخاصة. فمن الممكن جداً اعتبار مغامرة زاء لإثبات انتقاله إلى جانب العقل بأنها استمرار في جنون لا يخضع لزمن لأنه وببساطة لا يخضع لذاكرة تدير ذلك الزمن.

فجأة، وفي أشد سنوات حرب العراق مع ايران سخونة واشتعالا، يذهب زاء إلى مكتب التجنيد ليعلن خلاصه من الجنون الذي لحق به، كما لحق بأخوته على حد سواء، ورغبته بالذهاب إلى حرب تستعر غير بعيد عن هنا. عند هذا الحد لايمكن التأكيد أنْ كان زاء حقاً قد غادر جنونه أم انه فقط قد غادر جنونه الى جنون أرحب وأكثر انفصالاً عن الزمن! ومن ثم لايمكن التأكد من أنه بعد قضائه شهراً (في أكثر المناطق جنوناً) وعودته الى ذات المكتب حاملاً (أول معاش يقبضه من الجيش) قائلاً للضابط المسؤول بعد أن ألقى المبلغ أمامه (لست متأكداً من أنني تخلصت من الجنون، لست متأكداً من أني عاقل ولذا لن أذهب إلى الجيش). هل غادر عقله إلى الجنون حين ذهب الى الحرب في المرة الأولى أم أنه تخلى عن جنونه لصالح العقل حين عاد من الحرب في المرة الثانية؟.

إنها أكثر المناطق اشتباكاً في الجنون وهي كذلك أشد المناطق خضوعاً للازمن، حين يبدو كل شيء ساهماً وساكناً كقرية نائية بعد مطر طويل. الجنون الذي أراد الراوي أن يصفه لنا على أنه التوق الأكثر خصوصية ودنواً لأرواحنا التي أضنتها الحروب وهلوسات العقل. توقف الزمن، الذي نطلبه بقوة نحن أيضاً، وما رافقه من حيادية مدهشة للذاكرة، التي تذكرنا دائما بعدم حريتنا وتعدد لنا مثالبنا وانكساراتنا، التي تنبش في لاوعينا عن خوف قديم أو قصة بائدة.

(لم يدرك علي ما كان يحدث خارج البيت، لم يهتز للهتافات والضجيج وأخبار الحروب. لم يهتز لانفجارات القنابل الذكية التي خلخلت البيت. لم يجعله التراب المتساقط من السقف العتيق، حين قصفوا جسر العمارة عام ١٩٩١ ، يلتفت إلى ماكان يحدث أو ينظر إلى السقف المتشقق. كانت هناك لحظة حية خارج الزمن، لحظة يعيشها عميقاً بكل كيانه، لا تنتمي الى كل تلك التغيرات. لحظة ماتت أخيرا بعد أن قاومت ذلك أكثر من ثلاثين عاماً.

علي الذي لم يدرك كل ما سبق، أنّى له أن يدرك موته المفترض؟

إن موت علي يعنينا أكثر مما يعنيه هو، وهو فكرتنا المعقلنة عن الموت، فما يعني الموت دون ذاكرة تؤهلنا لوضع تفسير منطقي للحياة؟.(هو لم يعش فلماذا يموت) هذا ما قاله الراوي وهو في أوج دهشته من موت مجنون بلا ذاكرة، وهذا، على الأغلب، مايقوله عاقل بذاكرة، لكن ما يقوله أخوة علي غير هذا تماماً: هو لم يعش فكيف يموت؟ هذا السؤال هو الأقرب الى هذا الانتقال من حال إلى آخر أكثر حرية ، بعد أن أضاف إلى الحرية التي تمنحها اختفاء الذاكرة، سحرية اختفاء الألم. خلود علي هو ماتحدث به ماركوس فلامينوس روفوس، وهو ماقاله سيوران، وإن كان ببلاغة أقل: الكائنات التي تعيش بدون ذاكرة لم تغادر الفردوس بعد.

زاء أكثر الجميع مدعاة للأسى، زاء الذي لم يحسم أمره بعد، ربما الى هذه اللحظة، بين الجنون الذي سعى له نيتشة بفكرته عن الإرادة الحرة والتي تبين أنها لم تفده بشيء في النهاية وسلمته بكثير من التعسف الى الموت. وبين العقل الذي حاول من خلاله الراوي، بإخلاص، أن يسرد ما أملاه عليه مجنون يعتقد أنه عاقل أو عاقل يعتقد بجنونه.

إنه عبث لا ينتهي، عبث أن نكون عقلاء أو عبث أن نكون مجانين، لأننا سنصفق يوما ما لنهاياتنا، كما فعل نيتشة، حين ندرك، متأخرين، بأن لا العقل ولا الجنون قادران على جعلنا اكثر حقيقية من (كائنات الطين) الهشة تلك.

إنها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف، ولا تعني أي شيء.

ماكبث

* كائنات الطين عنوان قصة من مجموعة "في مرايا حانة" التي صدرت للقاص والروائي حسن ناصر عن دار الفارابي ٢٠١١.